والمراجع. وهذا لأن الناس يعلمون كلهم بأن الكلام ما يقال ليس مثل ما يكتب
ويدون وأن ما قيل في حالة خاصة لا يصح أن يعد منهجا كاملا عاما لقائله
أو زمانه ومنسوبا إليه كلا في كل العصور. بل هنا أمر آخر وهو أن الرجل قد
يعمل العمل في حالة خاصة ثم لا يرضى بأن يقتدى به وأن ينقل عنه وأن يأخذه
الناس عنه بالأسوة والقدوة. هذه أمور لا ريب في صدقها وصحتها فإذا
علمت علم أن من الخطأ والجهل أن تنقل هذه الحكايات والروايات عنهم ويحملها
ويعتقدها على أنها مذاهب لهم وعلى أنه يصح تقليدهم واتباعهم
فيها حتى عند من أوجبوا التقليد في هذه المسائل الفرعية. وهذا أيضا شيء
آخر. ذلك أن الإمام أو الشيخ من أئمة المسلمين ومشايخهم قد ينقل عنه
القول أو الفعل الذي قاله أو فعله في بدء أمره وأول حياته أي قبل أن
يكون إماما وشيخا. ومثل هذا لا يجوز أن يعد من قول
الإمام أو الشيخ أو فعله وإنما يعد من قوله وفعله قبل أن يكون إماما أو قبل
أن يكون شيخا. فإن نقله الناقل عنه ظنا أنه من رأيه وهو إمام وشيخ
فهذا خطأ ظاهر صريح بلا شك. والعالم من علماء المسلمين ما كان يظن
أنه سوف يجيء أناس يحاولون أن يحصوا كل ما قاله وكل ما فعله
في كل حياته وحالاته ليجعلوه حججا وبراهين وليدونوه في الكتب ويدعوا
المسلمين إليه وإلى العمل به وليعدوا من لم يعمل به خارجا مارقا من الدين
لدين المسلمين ولسلفه الأئمة. ولو أن علماء المسلمين الأولين علموا أنه سوف
يأتي قوم يصنعون من أقوالهم وأفعالهم هذا الموضع لحذروا من ذلك ولزجروا
من ذلك ولأنكروا هذا الصنيع والعمل ثم لاحتاطوا أكثر مما احتاطوا. بل
ما كان العلماء الأولون يظنون بأن جماهير المسلمين سوف يجعلون الكتاب والسنة
دبر آذانهم ويشتغلون بالاحتجاج بقول فلان وفلان من شيوخ العلماء والفقهاء

بل كانوا يودون أن يرجع المسلمون لا يكون غير كتاب الله وسنة رسوله
الصحيحة الثابتة

. ومما يحملون على الحق لقيتهم أن يعتبروا هذا المذهب في ما ينقل عن كثير من الفقهاء
والشيوخ إذا كان صحيحا ثابتا أن بعض السلف قد وقع منهم آراء شاذة
أنكرها عليهم السلف أنفسهم رضي الله عنهم أجمعين فقد تقدم أن جماعة من
المسلمين مروا في حياة الرسول الكريم على قوم من المشركين يعكفون على شجرة لهم
وينوطون بها أسلحتهم فطلبوا من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يجعل لهم
شجرة كشجرة المشركين فأنكر عليهم ذلك أشد الإنكار وقال لهم:
قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى اجعل لنا إلها كما
لهم آلهة. وقد جاء هذه القصة عن ثلاثة من الصحابة كما تقدم: عن أبي
واقد الليثي وعن ابن عباس وعن عمرو بن عوف. وجاء أن رجلا قال لرسول الله
ما شاء الله وشئت فقال صلى الله عليه وسلم: أجعلتني لله ندا؟ بل ما شاء الله
وحده. وجاء أن معاذ بن جبل وغيره من الصحابة أرادوا أن يسجدوا
لرسول الله فأنكر ذلك عليهم وأخبرهم بأن السجود لا ينبغي
إلا لله وحده. وجاء في أحاديث أخرى أن بعيرا سجد له صلى الله عليه
وسلم فقال جماعة من المسلمين نحن أحق بالسجود لك يا رسول الله من هذا
الحيوان فأخبرهم أن السجود لا يكون إلا لله. وجاء في أحاديث سبقت
أن فرقا من المسلمين كانوا يحلفون بغير الله وبالكعبة
حتى نهوا عن الحلف بغير الله. وصح أن رسول الله سمع عمر بن الخطاب يحلف
بأبيه فنهاه وقال: إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ومن كان حالفا فليحلف
بالله أو ليصمت. وصح أن ناسا قالوا: وفينا نبي يعلم ما في غد فأنكر
عليهم هذا القول وزجرهم عنه. وصح أنهم كانوا [illegible] عليه بالسؤال عن الساعة